الحسَد والشماتةَ مُتلازِمان

الحمدُ لله مُصرِّف الدهور، ومُيسِّر الأمور، ومُقلِّب الأيام والشهور، لا إله إلا هو له الحمدُ في الأولى والآخرة وإليه النشور، أحمدُه - سبحانه - وأشكرُه، وأتوبُ إليه وأستغفرُه، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً خالصةً صادقةً هي الشفاءُ لما في الصدور، وأشهدُ أن سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عبدُ الله ورسولُه صلى الله عليه وسلم.

أما بعد: ثمَّة خُلُقٌ ذميم، وسُلوك شائِن، يدلُّ على نفسٍ غير سويَّة، وقلبٍ مدخُول يكادُ يخلُو من الحبِّ والمودَّة والعطف، ذلكم - عباد الله - هو:

خُلُق الشماتة، وغالبًا ما يقترِنُ به مظاهرُ كراهية، من السخرية، والهمز، والغمز، واللَّمز، وألوان الاستهزاء قولاً وفعلاً وإشارةً - عياذًا بالله -.

الشماتةُ - حفِظَكم الله ووقاكم - وصفٌ ولقبٌ ولفظٌ فيه تنقُّص، أو حطُّ مكانة أو احتِقار أو ذمٌّ أو طعنٌ أو تعدٍّ على كرامة.

الشماتةُ فرحٌ ببليَّة من تُعاديه، والسُّرورُ بما يكرَهُ من تُجافِيه.

قال أهلُ الحكمة: "إن الحسَد والشماتةَ مُتلازِمان، فالحاسِدُ إذا رأى نعمةً بُهِت، وإذا رأى عثرةً شمِت".

أيها الشامِت! أيها المُبتلَى بالشماتة!

عافاك الله من هذا الداء وهداك، كأنَّك تزهُو بكمالك، وتُفاخِرُ بجمالِك، وتغفلُ عن مُوادَعةِ الأيام لك، وتظنُّ أن أخاك هذا المبتلَى لم يُبتلَى بما ابتُلِّيَ به إلا على كرامةٍ في نفسك أو بسبب إجابة دعوةٍ منك أو من غيرك.

فهذه تزكية، وهذا عُجبٌ وغُرور وغفلة؛ بل قد يكون استِدراجًا ومكرًا - عياذًا بالله -.

أما علِمتَ أن الشماتةَ قد تكون انعِكاسًا لأمراضٍ نفسيَّة، تدلُّ على عدم الثقة مع الإحساس بالفشل، فتُسلِّي نفسَك بهذا الخُلُق الذَّميم.

الشامِتُ محرومٌ من المحامِد الجميلة، والشعور الإنسانيّ النبيل.

الشامِتُ لا يفرحُ بمُصيبةِ غيرِه إلا من لُؤمِ طبعِه؛ بل الشماتةَ من أخلاق أهل النفاق، فقد قال - عزَّ شأنُه - في وصف المنافقين: ﴿إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾.

معاشر المُسلمين: ولقد استعاذَ نبيُّنا محمدٌ - صلى الله عليه وآله وسلم - من الشماتة وسُوئِها، كما في الحديث الصحيح: «اللهم إني أعوذُ بك من سُوء القضاء، ودرَك الشقاء، وشماتة الأعداء». رواه البخاري.

ولقد قال هارُون لأخيه موسى - عليهما السلام - كما في التنزيل العزيز: ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾؛ أي: لا تُفرِحهم بمُصيبتي. وإنما حسُن الدعاءُ بدفع شماتة الأعداء؛ لأن من له صِيتٌ عند الناس وتأمُّل وجدَ نفسَه كمن يمشي على حبلٍ مُعلَّق، والأقرانُ والحُسَّادُ ينظرون وينتظرون متى ينزلِق!".

فيا عبد الله! لا تشمت في أخيك، فيُعافِيه الله ويبتَليك، ولكن خُذ العِبرة: قال رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم -: «لا تُظهِر الشماتةَ لأخيك، فيرحمُه الله ويبتليك». رواه الترمذي.

لا تشمت بأخيك مهما صغُر شأنُه، وظهر عيبُه، وبانَ نقصُه في أمر الدين أو الدنيا؛ فإن الشماتةَ تجلِبُ البلاءَ والابتلاءَ، ولكن تضرَّع إلى الله مُستعينًا به، خائفًا مُستخفيًا، مُشفقًا على نفسِك وعلى أخيك، وقُل: "الحمدُ لله الذي عافاني مما ابتُلِيَ به، وفضَّلَني على كثيرٍ ممن خلقَ تفضيلاً".

ومثلُ هذا الدعاء لو تأمَّلتَ - حفِظَك الله - لعلِمتَ أن المقصودَ به الوقاية والحذرُ من الوقوعِ في الشماتة والاستِهزاء والسخرية والانتِقاص من إخوانِك.

معاشر المسلمين: الزمنُ قُلَّب، والأيامُ دُوَل، فكم من غنيٍ افتقَر، وفقيرٍ اغتنَى، وعزيزٍ ذلَّ، وذليلٍ عزَّ، ووضيعٍ ارتفَع، ورفيعٍ اتَّضَع، وقويٍّ ضعُف، وضعيفٍ قوِيَ، والدهرُ حين يجُرُّ بكَلكلِه على قومٍ فإنه يُنيخُ على آخرين، وسيلقَى الشامِتون كما لقِيَ غيرُهم.

يقول ابن مسعودٍ - رضي الله عنه -: "واللهِ لو أن أحدًا عيَّر رجلاً رضعَ من كلبة، لرضعَ هو من هذه الكلبة".

ويقول إسماعيلُ الهرويُّ: "أيُّ عيبٍ عيَّرتَ به أخاك فهو صائرٌ إليك".

ويقول الحسنُ البصريُّ - رحمه الله -: "أدركتُ أقوامًا لم تكُن لهم عيوب، فتكلَّموا في عيوب الناس فأحدثَ الله لهم عيوبًا، وأدركتُ أقوامًا كانت لهم عيوب، فسكَتوا عن عيوب الناس فسترَ الله عيوبَهم".

كيف وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تُؤذُوا عبادَ الله ولا تُعيِّرُوهم ولا تطلبُوا عوراتهم؛ فإن من طلبَ عورةَ أخيه المسلم طلبَ الله عورتَه، حتى يفضَحه في بيتِه». رواه أحمد في المسند.

ويقول إبراهيم النخعيُّ – رحمه الله –: "إني لأرى الشيءَ أكرهُه فما يمنعني أن أتكلَّم به إلا مخافة أن أُبتلَى به".

فما من عبدٍ يَعيبُ على أخيه ذنبًا إلا وابتُلِيَ به، فإذا بلغَك عن فُلانٍ سيئة فقُل من كل قلبِك: غفرَ الله لنا وله.

يا عبد الله! لا تُراقِب الناس، ولا تتبّع عوراتهم، ولا تكشِف سِترَهم، ولا تتجسَّس عليهم، اشتغِل بنفسِك، وأصلِح عيوبك؛ فلن تُسأل بين يدَي ربِّك إلا عن نفسِك، والله أرحمُ بك وبهم منك ومن أنفُسهم؛ بل إن المؤمنَ الصادقَ المخلِص يُحبُّ أن يُعامل الناسَ بما يُحبُّ أن يُعامِلوه به، على حدِّ قوله – صلى الله عليه وسلم –: «لا يُؤمنُ أحدُكم حتى يُحبَّ لأخيه ما يُحبُ لنفسه»؛ متفق عليه. و"إنما يُحبُّ الرجلُ لأخيه ما يُحبُّ لنفسِه إذا سلِم من الحسَد والغلِّ والغشِّ والحِقد".

أنت – أيها المُبتلَى بالشامِتين –: لا تحزن ممن يشمتُ بك أو يسخرُ، واستحضِر مواقِف الأقوام من أنبيائِهم حين سخِروا منهم واستهزأوا بهم، فكان النصرُ والعلُوُّ، وقد قال – عزَّ شأنُه –: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾.

وقُل لهم: صبرًا فإن أيام الدنيا دوَّارة، والأحوال مُتغيِّرات مُتقلِّبات؛ بل إن عُمر بن عبد العزيز - رحمه الله -: "ما رأيتُ ظالمًا أشبَه بمظلُوم من الحاسِد، غمٌّ وإثم، ونفَسٌ مُتتابِع". المبرد في الفاضل.

فحقٌّ على أهل الإيمان أن يدَعوا الأحقاد والأضغان، وأن يتجنَّبوا الشماتةَ في إخوانهم، فذلك مجلبةُ التفرُّق والتنازُع والتنابُز بالألقاب، والبغضاء.

وكيف تصدرُ الشماتةُ من مُسلم وهو يقولُ في وِرده كلَّ صباح: «اللهم ما أصبحَ بي من نعمةٍ أو بأحدٍ من خلقِك فمنك وحدَك لا شريكَ لك، فلك الحمدُ ولك الشُّكر». رواه أبو داود.

أعوذُ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

نفعَني الله وإياكم بالقرآن العظيم، وبهدي محمدٍ - صلى الله عليه وسلم - وأقولُ قولي هذا، وأستغفِرُ الله لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنبٍ وخطيئةٍ، فاستغفِروه إنه هو الغفورُ الرحيم.

*** ***

الخطبة الثانية

الحمدُ لله الأحد الواحد، ذي الفضل وجميل العوائِد، أحمدُه - سبحانه - وأشكرُه على إنعامه المتزايِد، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً أرجُو بها النجاةَ يوم الشدائِد، وأشهد أن سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عبدُ الله ورسولُه أفضلُ محمود وأفضلُ حامِد، صلَّى الله وسلَّم وبارَك عليه، وعلى آلِهِ وأصحابِه أحسنُوا الأعمال وأخلَصُوا المقاصِد، والتابعين ومن تبِعَهم بإحسانٍ وسلَّم تسليمًا كثيرًا ما خضعَ لله عابِد.

أما بعد، معاشر الأحبَّة: إن تعييركَ لأخيك بذنبِه أعظمُ إثمًا من ذنبِه، وأشدُّ من معصيته؛ لما فيه من صَولَة الطاعة، وتزكية النفس وشُكرِها، والمناداة عليها بالبراءة من الذنب، وأن أخاك باءَ به، ولعلَّ كسرتَه بذنبه وما أحدثَ له من الذلّة والخضوع والازدِراء على نفسه، والتخلُّص من مرض الدعوى والكِبر والعُجب، ووقوفه بين يدَي الله ناكِس الرأس، وخاشِع الطرف، ومُنكسِر القلب أنفعُ له وخيرٌ من صَولَة طاعتِك وتكثُّرك بها، والاعتِداد بها، والمنَّة على الله وعلى خلقِه بها.

فما أقربَ هذا العاصِي من رحمة الله، وما أقربَ هذا المدِلَّ من مقتِ الله. فذنبٌ تُذلُّ به لديه أحبُّ إليه من طاعةٍ تُدلُّ بها عليه. وإنك أن تَبيتَ نائمًا وتُصبِح نادمًا خيرٌ من أن تَبيتَ قائمًا وتُصبِح مُعجَبًا؛ فإن المعجَب لا يصعَدُ له عمل، وإنك إن تضحَك وأنت مُعترِف خيرٌ من

أن تبكِي وأنت مُدلّ، وأنينُ المذنِبين أحبُّ إلى الله من زجَل المسبحين المدِلّين، فطُوبَى لمن شغلَه عيبُه عن عيوب الناس، وويلٌ لمن نسِيَ عيبَه وتفرَّغ لعيوب الناس.

هذا، وصلُّوا وسلِّموا على الرحمةِ المهداة، والنعمةِ المسدَاة: نبيِّكم محمدٍ رسول الله، فقد أمرَكم بذلك ربُّكم في مُحكَم تنزيلِه، فقال - وهو الصادقُ في قِيله - قولاً كريمًا: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}.

اللهم صلِّ وسلِّم وبارِك على عبدك ورسولك نبيِّنا محمدٍ الحبيب المصطفى، والنبي المجتبى، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى أزواجه أمهات المؤمنين، وارضَ اللهم عن الخلفاء الأربعة الراشدين: أبي بكرٍ، وعُمر، وعُثمان، وعليٍّ، وعن الصحابة أجمعين، والتابعين ومن تبِعَهم بإحسانٍ إلى يوم الدين، وعنَّا معهم بعفوك وجُودك وإحسانِك يا أكرم الأكرمين.

اللهم أعِزَّ الإسلام والمسلمين، وأذِلَّ الشرك والمشركين، واخذُل الطغاةَ والملاحدةَ وسائرَ أعداء الملَّة والدين. اللهم آمِنَّا في أوطاننا، وأصلِح أئمَّتنا وولاةَ أمورنا، واجعل اللهم ولايتَنا فيمن خافَك واتَّقاك، واتَّبَع رضاك يا رب العالمين. اللهم وفِّق إمامنا ووليَّ أمرنا بتوفيقك، وأعِزَّه

بطاعتك، وأعلِ به كلمتَك، واجعله نُصرةً للإسلام والمسلمين، اللهم أصلِح أحوال المسلمين في كل مكان، اللهم احقِن دماءَهم، واجمع على الحقِّ والهُدى والسنَّة كلمتَهم، ووَلِّ عليهم خيارَهم، واكفِهم أشرارَهم، وابسُط الأمنَ والعدلَ والرخاءَ في ديارهم، اللهم من أرادَنا وأرادَ ديننا وديارَنا وأمنَنا وأمَّتَنا بسُوءٍ، اللهم فأشغِله بنفسه، واجعَل كيدَه في نحره، واجعَل تدبيرَه تدميرًا عليه يا قوي يا عزيز.

اللهم أنت الله لا إله إلا أنت، أنت الغنيُّ ونحن الفقراء، أنزِل علينا الغيثَ ولا تجعَلنا من القانِطين، اللهم أغِثنا، اللهم أغِثنا، اللهم أغِثنا، اللهم إنا نسألُك غيثًا مُغيثًا، غدَقًا سحًّا مُجلِّلاً، نافعًا غيرَ ضارٍّ، تسقِي به العباد، وتُحيي به البلاد، وتجعلُه بلاغًا للحاضِر والباد. اللهم إنا خلقٌ من خلقِك، ليس بنا غِنًى عن سُقياك، فلا تمنَع عنَّا بذنوبِنا فضلَك. على الله توكَّلنا، ربَّنا لا تجعَلنا فتنةً للقوم الظالمين.

رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ، رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ عباد الله: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ فاذكرُوا الله يذكُركم، واشكُروه على نعمه يزِدكم، ولذكرُ الله أكبر، والله يعلمُ ما تصنَعون.